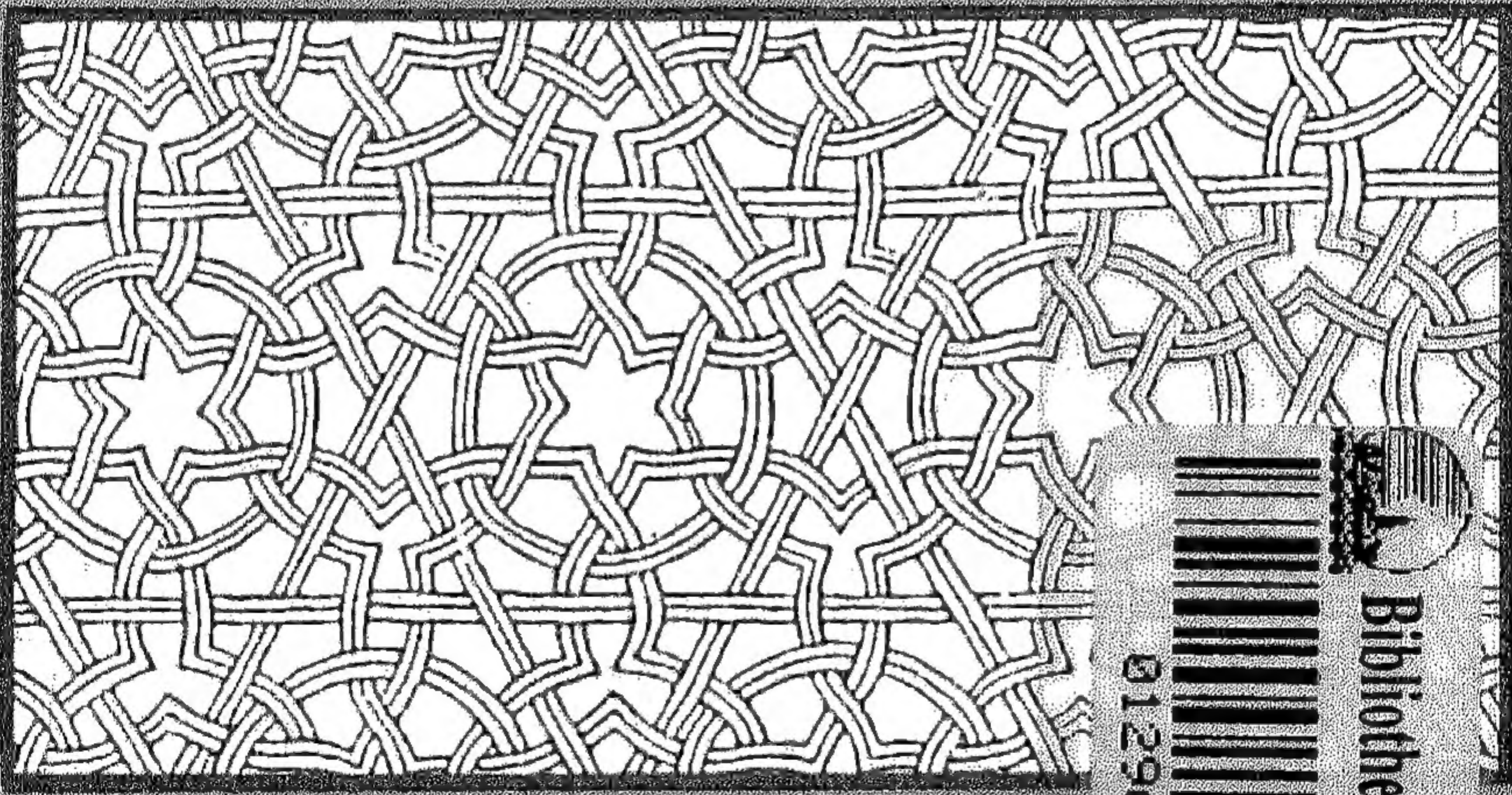


الفصول

في الأسئلة وأجوبتها
للإمام الغزالي



0129692

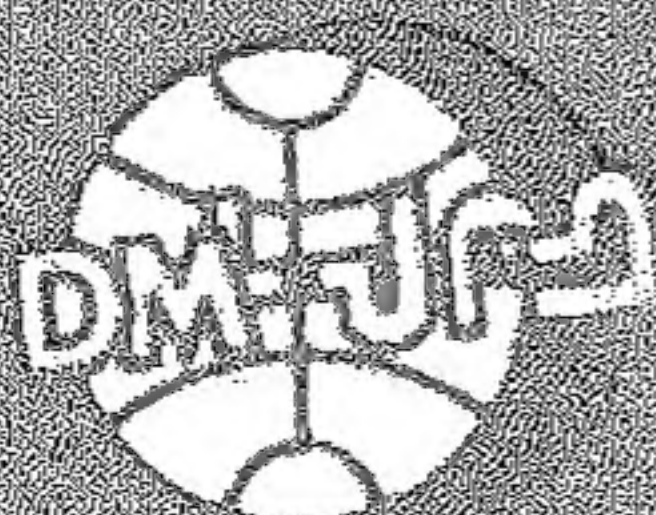


Bibliotheca Alexandrina

تحقيق وتعليق

الدكتور

محمد عبد الرحيم الشيخ



الْفَصِيحُ وَالْفَصِيحُ
فِي الْأَسْئَلَةِ وَأَجْوِبَتِهَا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م



الدار المصرية اللبنانية

طاعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٢٩٢٢٥٢٥ - ٢٩٢٦٧٤٢ مرقيا دار شادو - هـ ب ٢٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIYAH AL-LUBNANIAH

PRINTING-PUBLISHING-DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT st p o Box 2022 CAIRO- EGYPT PHONE 3936743 3923525 CABLE DARSHADO

القصص

في الأسئلة وأجوبتها

للإمام الغزالي

تحقيق وتعليق

الدكتور

محمد عبد الكريم السبع

الناشر

دار الكتب العلمية

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، الذى أنعم على خلقه بنعمة الروح وجعله فيضا يفيض به على من يشاء .

والصلاة والسلام على الرسول محمد الصادق الأمين ، الذى أرسله الله رحمة وهداية للناس أجمعين .

أما بعد :

فإن كتاب « الفصول فى الأسئلة وأجوبتها » للإمام حجة الإسلام الغزالي من أنفع الكتب فى موضوعها ؛ لأن عقل الإنسان طلق ، مافتىء فى كل وقت وحين ، يتطلع إلى التساؤل عن الروح وما يتصل بها .

وحجة الإسلام يدرك ما للعقلية الإنسانية من تطلع وحب للاستطلاع والمعرفة ، ولهذا وضع كتابه « الفصول فى الأسئلة وأجوبتها » ليشمل الفصول التالية :

الفصل الأول : عن معنى قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ،
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١) .

والفصل الثاني : عن النفخ .

والفصل الثالث : عن الروح وحقيقته .

والفصل الرابع : عن حقيقة هذه الحقيقة .

والفصل الخامس : عن معنى قوله - صلى الله عليه وسلم - :
« إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن » .

والفصل السادس : عن معنى قوله : « من عرف نفسه
عرف ربه » .

والفصل السابع : عن معنى قوله ﷺ : « خلق الله الأرواح
قبل الأجساد بألفى عام » . وقوله - عليه الصلاة والسلام -
: « أنا أول الأنبياء خلقاً ، وآخرهم بعثاً ، وكنت نبياً
وآدم بين الماء والطين » .

★ ★ ★

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الحجر .

إن هذه الفصول السبع التي اشتمل عليها الكتاب ،
تعرض لموضوعات في غاية الأهمية ، خاصة بالنسبة للإنسان
المعاصر ، الذي شهد تقدماً علمياً هائلاً . ويريد أن يقف على
أمر لا تخضع للعلم .

إن الغزالي كان دقيقاً في غاية الدقة ، وهو يجيب على هذه
الأسئلة ، التي قد تكون وجهت إليه فعلاً ، وقد لا تكون
وجهت إليه أسئلة من هذا النوع ، وإنما رأى هو حاجة الناس
إلى هذا النوع من الموضوعات . فوضع الأسئلة والأجوبة ؛
ليكون لها وقع في النفوس . ولا زال الناس يحبون أن يقرأوا
ما يأتي إجابة عن أسئلة .

والأمة الإسلامية تتطلع إلى غد مشرق بالثقافة الإسلامية
الأصيلة ، وثقافتنا الإسلامية الأصيلة نستمدّها من القرآن
الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وما جاء عن السلف الصالح .
ومن شأننا أن نقرأ أقوال علمائنا الأماجد فإن فيها ما
يطمئن العقل والقلب معاً .

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب .

الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح

ترجمة الإمام الغزالي

الإمام الغزالي هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسي^(١) الغزالي^(٢) المعروف بأبي حامد ، نسبة إلى ابن له توفاه الله صغيراً . والملقب بحجة الإسلام لذوده عن حياض العقيدة الإسلامية بفكره وقلمه .

ولد الغزالي بمدينة طوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٩ م . وكان والد الغزالي يشتغل بغزل الصوف ، فلما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق متصوف هو الشيخ أحمد بن محمد الرازكاني الذي عني بتعليم محمد الغزالي وأخيه أحمد وتفقيهما الفقه الشافعي وأصوله^(٣) .

١ — نسبة إلى طوس : مدينة من أعمال خراسان ، سميت أولاً طابران ، فتحها المسلمون سنة ٢٨ هـ - ٦٤٩ م وضربها المغول ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م فيها قبر هارون الرشيد .

٢ — يضبط اسم الغزالي على وجهين : إما بتشديد الزاي نسبة إلى غزال على طريقة أهل خراسان . وإما بدون تشديد ، نسبة إلى غزالة ، وهي علم لبلدة قرب طوس .

٣ — تاج الدين أبو نصر السبكي طبقات الشافعية ج٦ ص ١٩١ .

ولما حصل محمد الغزالي على طرف من الفقه . سافر بعد ذلك إلى جرجان . فأخذ عن أبي نصر الإسماعيلي ، ثم رجع إلى طوس ، فمكث فيها ثلاث سنين يشتغل بما كان قد حصله من العلم .

وبعد ذلك قدم نيسابور ، ولازم إمام الحرمين ضياء الدين الجويني ، وجد واجتهد ، حتى برع في فقه الشافعي ، وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة^(٤) .

يقول الغزالي : لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته .

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

٤ — الدكتور عبد الفتاح بركة : الإمام الغزالي الذكرى المئوية التاسعة لوفاته ص ١١٩ (جامعة قطر ١٤٠٦ هـ) .

ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه
ومجادلته .

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .
ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .
ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب
جراته في تعطيله وزندقته » (٥) .

وفي سنة ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م خرج الغزالي من نيسابور
بعد وفاة شيخه الجويني ، إلى المعسكر الذي كان فيه نظام
الملك « وزير السلطان السلجوقي » . وظل يختلف إلى
مجلسه ، ويسهم في مختلف المناظرات ، بآرائه وأفكاره . حتى
إذا تأكد هذا الوزير من تألقه وظهوره على الكثيرين من علماء
عصره ، بعلمه الجم ، وخبرته الواسعة ، أسند إليه مهمة
التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد حيث السلجوقيون المؤيدون
للسنة .

٥ — الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٨٠ ، ٨١ ط دار الكتاب اللبناني ١٩٨٥ بتقديم
الدكتور عبد الحليم محمود .

واستطاع في مهمته الجديدة كَمُرَّبٍ مسئول عن تعليم عدد هائل من الطلاب . أن يؤكد جدارته واقتداره واستحقاقه لثناء الناس وإعجابهم^(٦) .

وقد شاهد الغزالي أحداثاً خطيرة في هذه الحقبة ، منها : مقتل نظام الملك - الوزير السلجوقي الكبير - سنة ٤٨٥ هـ - ١٠٩٢ م ، ومنها موت السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان في السنة نفسها ، ومنها وفاة الخليفة المقتدى بأمر الله سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م ، كما شاهد حفل تنصيب الخليفة المستظهر بالله^(٧) .

كل هذه الأمور دفعت الغزالي لأن يترك المنصب الكبير وهو التدريس في المدرسة النظامية ، ويفارق بغداد ، ويتوجه إلى الشام ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م^(٨) .

يصور الغزالي تلك اللحظات الحاسمة من حياته فيقول : « فلم أزل أفكر في الأمر مدة ، وأنا بعدُ على مقام الاختيار ،

٦ - أحمد السلاوي : علم الكلام ونظريات الغزالي ص ٢ ، ٣ ط المعهد التربوي الوطني ، الرباط ، المغرب ١٤٠٣ هـ .

٧ - راجع الدكتور فائز محمد علي الحاج : أبو حامد الغزالي ج ٣ ص ٣١ من أعلام التربية العربية الإسلامية ط مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٩ هـ .

٨ - راجع خالد معاذ : دمشق أيام الغزالي ص ٤٧٩ - ٤٨٩ ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

أصمم العزم على الخروج من بغداد ، وأصل العزم يوما ،
وأقدم فيه رجلاً وأؤخر فيه أخرى ، فلم أزل أتردد بين تجاذب
شهوات الدنيا ودواعي الآخرة ، ستة أشهر ، أولها رجب
٤٨٨ هـ . وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى
الاضطرار ، ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية
اختياري ، التجأت إلى الله - تعالى - التجاء المضطر الذي
لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وأظهرت
عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام^(٩) .

لقد اتجه الغزالي إلى الشام ، وعاش عيشة الزهاد في مئذنة
جامع دمشق الأموي ، وقد عرفت بالمئذنة الغزالية ، وبعد
مرور سنتين رحل الغزالي إلى بيت المقدس ، وكان كثير
الاعتكاف في مسجد قبة الصخرة . وبعد ذلك سافر إلى مكة
فأدى فريضة الحج ، ثم اعتزم بعد ذلك الرحلة إلى المغرب سنة
٤٩٩ هـ - قاصداً زيارة الأمير يوسف بن تاشفين^(١٠) ،
ولكنه لما وصل الإسكندرية علم بوفاته فرجع إلى نيسابور .

٩ - الغزالي : المنقذ من الضلال ص ١٢٤ ، ١٢٥ بتصرف واختصار .

١٠ - يوسف بن تاشفين من أكبر سلاطين المرابطين باني مراكش ، استولى على فاس ،
وغزا الأندلس وانتصر على الإفرنج في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م ،
بايعه ملوك الأندلس بإمارة المسلمين ، توفي بمراكش ٥٠٠ هـ « الموسوعة العربية
الميسرة » .

وأنت ترى أن رحلته الطويلة التي زار فيها الشام وفلسطين
والحجاز ومصر عشر سنوات - وظل مدة في مدينة نيسابور ،
حيث عاد بعدها إلى طوس . ثم دعاه ضياء الملك بن نظام
الملك فتولى المدرسة النظامية سنة ٥٠٤ هـ للتدريس في
بغداد ، فاعتذر عن ذلك ، وقد بنى بجوار داره مدرسة
للفقهاء ، ومأوى للسالكين ، وفاضت روحه في الرابع عشر
من جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ الموافق ١١١١ م .

بقى أن نعرف أن الغزالي متأثر إلى حد كبير بمنهج الإمام
الأشعري ، وأنه مؤلف مكثر ، حتى لقد خلف حوالى ثلاثمائة
كتاب في مختلف العلوم والفنون خصها بالذكر الدكتور
عبد الرحمن بدوي في كتاب له .

الْقِسْمُ الْوَلَدِيُّ

فِي الْأَسْئَلَةِ وَأَجْوِبَتِهَا

لِلْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه فصول ذكرها الإمام حجة الإسلام
قدس الله روحه - في جواب أسئلة سئل عنها

الفصل الأول :

سئل عن معنى قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ، وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ^(١) . وعن معنى « التسوية » ؟؟ ..

فقال - رحمه الله - : التسوية : فعل في المحل القابل للروح ،
وهو الطين في حق آدم ، والنطفة في حق أولاده بالتصفية
وتعديل المزاج ، فإنه كما لا يقبل النار يابس محض ، كالتراب
والحجر ، ولا رطب محض ، كالماء . بل لا تتعلق النار إلا
بمركب ، ولا كل مركب فإن الطين مركب ، ولا تشتعل فيه
النار ، بل لابد بعد تعديل تركيب الطين الكثيف من تردد في
أطوار الخلقة ، حتى يصير نباتاً لطيفاً ، فيتشبت به النار ،
وتشتعل فيه . فكذلك الطين بعد أن ينشئه الله خلقاً بعد
خلق ، في أطوار متعاقبة ، يصير نباتاً ، فيأكله آدمي ،

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الحجر .

فيصير دما ، فينتزع القوة المميزة المركبة في كل حيوان من الدم ، صفوة الذي هو أقرب إلى الاعتدال ، فيصير نقطة ، فيقبلها الرحم ، ويمتزج بها منى المرأة ، فيزداد به اعتدالاً ، ثم ينضجها الرحم بحرارته ، ويزداد تناسباً ، حتى ينتهي في الصفاء ، واستواء نسبة الأجزاء إلى الغاية ، فيستعد لقبول الروح وإمساكها ، كالفتيلة التي تستعد عند تشرب الدهن لقبول النار وإمساكها .

فالنطفة عند مادة الاستواء والصفاء تستحق باستعدادها روحاً يدبرها ، ويتصرف فيها ، فيفيض إليها الروح من جود الجواد ، الحق الواهب لكل مستحق ما يستحقه ، ولكل مستعد ما يقبله ، على قدر قبوله ، واحتماله ، من غير منع ، وبخل .

فالتسوية عبارة عن هذه الأفعال المردودة ، لأصل النطفة في الأطوار السالكة بها إلى صفة الاستواء ، والاعتدال ..

الفصل الثانى :

وسئل عن النفخ ؟

فقال رحمه الله : النفخ : عبارة عما اشتعل به نور الروح فى فتيلة النطفة . وللنفخ صورة ونتيجة . أما صورته : فأخراج الهواء من جوف النافخ فى جوف المنفوخ فيه ، حتى يشتعل الحطب القابل للنار .

فالنفخ سبب للاشتعال ، وصورة النفخ الذى هو سبب فى حق الله - تعالى - محال ، والمسبب غير محال . وقد يكتفى بالسبب عن الفعل الذى يحصل المسبب على سبيل المجاز ، وإن لم يكن الفعل المستعار له على صورة الفعل المستعار منه . كقوله - تعالى - : ﴿ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾^(٢) . وكقوله : ﴿ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ ﴾^(٣) .

والغضب : عبارة عن نوع تغير فى الغضبان ، يتأذى به ، ونتيجته إهلاك المغضوب عليه بالغضب . فعبر عن نتيجة

(٢) من الآية : ١٤ من سورة المجادلة ، ومن الآية : ١٣ من سورة الممتحنة .

(٣) من الآية : ١٣٦ من سورة الأعراف ، ومن الآية : ٧٩ من سورة الحجر ، ومن الآية :

٢٥ من سورة الزخرف .

الغضب بالغضب ، وعن نتيجة الانتقام بالانتقام . فكذلك
عبر عن نتيجة النفخ بالنفخ ، وإن لم يكن على صورة النفخ .
فقليل له : فما السبب الذى به اشتعل نور الروح فى فتيلة
النطفة ؟

فقال : هو صفة فى الفاعل ، وصفة فى القابل ، أما صفة
الفاعل ، فالجود الإلهى الذى هو ينبوع الوجود ، وهو فياض
بذاته على كل ماله قبول الوجود حقيقة وجودها على كل
حقيقة . ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة . ومثالها : فيضان نور
الشمس ، على كل قابل للاستنارة ، وهى المتلونات ، دون
الهواء الذى لا لون له .

وأما صفة القابل ، فالاستواء والاعتدال الحاصل بالتسوية
كما قال : « سَوِّئَتْهُ » .. ومثال صفة القابل : صقالة الحديد .
فإن المرأة التى ستر الصداً وجهها لاتقبل الصورة ، وإن
كانت محاذية للصورة .

وإذا اشتغل الصيقل بتصقيلاها ، فكما حصلت الصقالة
حدثت فيها الصورة من ذى الصورة المحاذية لها .

فكذلك إذا حصل الاستواء فى النطفة حدث فيها الروح
من خالق الروح ، من غير تغير فى الخالق . بل إنما حدث
الروح الآن لاقبله لتغير المحل ؛ لحصول الاستواء الآن لا
قبله .

كما أن الصورة فاضت من ذى الصورة على المرآة في حكم الوهم ، من غير تغير حدث في الصورة ، ولكن كان لا يحصل من قبل ، لا لأن الصورة غير مهيأة لأن ينطبع في المرآة ، لكن لأن المرآة لم تكن صقيلة قابلة .

ف قيل : فما الفيض ؟

فقال رحمه الله : لا ينبغي أن تفهم من الفيض ماتفهم من فيضان الماء من الإناء على اليد . فإن ذلك عبارة عن انفصال جزء مما في الإناء ، واتصاله باليد . بل افهم منه ماتفهمه من فيضان نور الشمس على الحائط . لقد غلط قوم في نور الشمس أيضاً ؛ فظنوا أنه ينفصل شعاع من جرم الشمس ، ويتصل بالحائط ، ويبسط عليه وهو خطأ . بل إن نور الشمس سبب لحدوث شيء يناسبه في النورية ، وإن كان النور أضعف منه في الحائط المتلون ، كفيضان الصورة على المرآة من ذى الصورة ، لا بمعنى انفصال جزء من صورة الإنسان ، بل صورة الإنسان سبب لحدوث صورة تماثلها في المرآة القابلة لمحاذاة الصورة . وليس فيه انفصال واتصال إلا السببية المجردة ، فكذلك الجود الإلهي ، سبب لحدوث أنوار الوجود في كل ماهية قابلة للوجود ، فيعبر عنه بالفيض ..

الفصل الثالث :

قيل له : قد ذكرت التسوية والنفخ . فما الروح ؟ وما حقيقته ؟ وهل هو حالٌّ في البدن حلول الماء في الإناء ، أو حلول العرض في الجوهر^(٤) ؟ أو هو جوهر قائم بنفسه ؟ فإن كان جوهرًا متحيزًا أو غير متحيز ، فإن كان متحيزًا فما مكانه : القلب ؟ أو الدماغ ؟ أو موضع آخر ؟. وإن لم يكن متحيزًا فكيف يكون جوهرًا غير متحيز ؟...

فقال - قدس الله روحه - : هذا سؤال عن سر الروح الذى لم يؤذن لرسول الله ﷺ في كشفه لمن ليس أهلاً له . فإن كنت من أهله فاسمع . واعلم : أن الروح ليس بجسم يحل

٤ - الجوهر : هو ما كان جرمه يشغل فراغا بحيث يمتنع أن يحل غيره من حيث حل . وهو معنى « المتميز بذاته » وذلك كأفراد الإنسان . لا كالعلم واللون . إذ هما لا يتحيزان بذاتهما ، وإنما يتحيزان بالتبع ، لأنهما يقومان بالجوهر .

فإن كان الجوهر دقيقا بحيث انتهى في الدقة إلى أنه لا يقبل الانقسام بوجه - أى : لا طولاً ، ولا عرضاً ، ولا عمقاً - فهو المسمى بالجوهر الفرد . وإن كان يقبل الانقسام ، أى : طولاً فقط أو طولاً وعرضاً فقط ، أو طولاً وعرضاً وعمقاً - فهو المسمى بالجسم ، أى : أن الجسم هو الهيئة الاجتماعية المؤلفة من الجواهر الفردة .

البدن حلول الماء في الإناء ، ولا هو عرض^(٥) يحل في القلب
والدماغ حلول السواد في الأسود ، والعلم في العالم . بل هو
جوهر ، وليس بعرض لأنه يعرف نفسه ، وخالقه ، ويدرك
المعقولات . والعرض لا يتصف بهذه الصفات . ولا هو
جسم ؛ لأن الجسم قابل للقسمة ، والروح لا ينقسم ؛ لأنه لو
انقسم لجاز أن يقوم بجزء منه علم بالشئ ، وبجزء آخر جهل
بذلك الشئ الواحد بعينه .. فيكون في حالة واحدة عالماً
بالشئ وجاهلاً به ، وهو محال . والعلم والجهل بشئ واحد
في شخصين غير محال ، فدل أنه واحد لا ينقسم ، وهو باتفاق
العقلاء ليس جزءاً لا يتجزأ ، أى : شئ لا ينقسم ؛ إذ لفظ
الجزء غير لائق به ؛ لأن الجزء إضافة إلى الكل ، ولا كل
ههنا ، ولا جزء إلا أن يراد به ما يريده القابل بقوله : الواحد
جزء من العشرة ، فإذا أخذت جميع الموجودات ، أو جميع
مابه قوام الإنسان في كونه إنساناً كان الروح داخلياً من
جملتها . فإذا فهمت أنه شئ لا ينقسم . فلا يخلو :

٥ — والعرض : هو مالا يشغل فراغاً ، ولا له قيام بنفسه ، وإنما يكون وجود العرض تابعاً
لوجود الجوهر ، وذلك كالعلم الذي يقوم بالجوهر . والحركة أو السكون . فإنها لا تشغل
فراغاً بل الفراغ الذي يشغله الجوهر قبل اتصافه بها . هو الفراغ الذي يشغله مع اتصافه بها
من غير زيادة .

« راجع الدكتور عبد العزيز سيف النصر : فلسفة علم الكلام ص ٧ الأولى ١٤٠٤ هـ »

إما أن يكون متحيزاً أو غير متحيز . باطل أن يكون متحيزاً ؛ إذ كل متحيز منقسم . والجزء الذى لا يتجزأ باطل بأدلة واضحة : هندسية ، وعقلية ، وأقربها أنه لو فرض جواهر من جوهريين لكان كل واحد من الطرفين ملقى من الوسط غير مايلقى الآخر . فيجوز أن يقوم بالوجه الذى يلقاه هذا الطرف علم ، وبالوجه الآخر جهل ، فيكون عالماً جاهلاً في حالة واحدة ، بشيء واحد : محال . وكيف لا ؟ ولو فرض بسيط مسطح من أجزاء لا يتجزأ ، لكان الوجه الذى يحاذينا ونراه غير الوجه الذى لانراه . فإن الواحد لا يكون مرئياً وغير مرئى في حالة واحدة . ولكانت الشمس إذا حازت أحد وجهيه استنار بها ذلك الوجه ، دون الوجه الآخر .. فإذا ثبت أنه لا ينقسم ، وأنه لا يتحيز ، ثبت أنه قائم بنفسه ، وغير متحيز أصلاً .

الفصل الرابع

قيل له : فما حقيقة هذه الحقيقة ؟ وما صفة هذا الجوهر ؟
وما وجه تعلقه بالبدن ؟ أهو داخل فيه أو خارج منه ومتصل
به ، أو منفصل عنه ؟؟ ..

فقال - رحمه الله - : لا هو داخل ، ولا هو خارج ، ولا
هو متصل ، ولا هو منفصل . لأن مصحح الاتصاف
بالاتصال والانفصال : الجسمية والتحيز ، وقد انتفى عنه ،
فانفقت عن الضدين ، كما أن الجماد لا هو عالم ، ولا هو
جاهل ؛ لأن مصحح العلم والجهل : الحياة ، فإذا انتفت
انتفى الضدان .

قيل : فهل هو في جهة ؟ .

قال : هو مبرأ عن الحلول في المَحَالِّ ، والاتصال
بالأجسام من الاختصاص بالجهات ؛ فإن كل ذلك صفات
الأجسام وأعراضها وهو ليس بجسم ولا عرض في جسم ، بل
هو مبرأ عن هذه العوارض .

فقليل له : لم منع الرسول ﷺ من إفشاء هذا السر ،
وكشف حقيقة الروح ؟.

فقال - رحمه الله - : لأن الأفهام لا تحتمله ؛ لأن الناس
قسمان : عوام وخواص . أما من غلب على طبعه العامية ،
فهذا لا يقبله ، ولا يصدق به ، في وصفه الله - تعالى -
فكيف يصدق به في حق روح الإنسان ؟! ولهذا أنكرت
الكرامية والحنبلية .. ومن كانت العامية أغلب عليه ذلك ،
وجعل الإله جسماً إذا لم يعقل موجوداً إلا متجسماً مشاراً
إليه ، ومن ترقى عن العامية قليلاً ، نفى الجسمية وأثبت
الجهة ، وترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة ، فأثبتوا
موجوداً لا في جهة ...

فقليل له : فلم لا يجوز كشف هذا السر مع هؤلاء ؟
فقال : لأنهم أحالوا هذه الصفة لغير الله - تعالى - فإذا
ذكرت معهم كفروك . وقالوا : إنك تصف نفسك بما هو
صفة الإله على الخصوص ، فكأنك تدعى الإلهية لنفسك .
فقليل له : فلم أحالوا أن تكون هذه الصفة لله - تعالى -
ولغير الله أيضاً ؟

فقال : لأنهم قالوا : كما يستحيل في ذوات المكان أن يجتمع
اثنان في مكان واحد ، يستحيل أن يجتمعا أيضاً في لا مكان ؛

لأنه إنما استحال اجتماع جسمين في مكان واحد ، لأنه لو اجتماعا لم يتميزا أحدهما عن الآخر . فكذلك لو وجد اثنان كل واحد ليس في مكان ، فلم يحصل التمييز والفرقان ، ولهذا أيضاً قالوا : لا يجتمع سوادان في محل واحد ، حتى قيل : المثلان يتضادان .

فقيل له : فهذا إشكال قوى فما جوابه ؟.

فقال : إنهم اخطأوا حيث ظنوا أن التمييز لا يحصل إلا بالمكان ، بل يحصل التمييز بثلاثة أمور :

أحدها : بالمكان لجسمين في مكانين .

والثاني : بالزمان كسوادين في جوهر واحد في زمانين .

والثالث : بالحد والحقيقة كالأعراض المختلفة في محل واحد ، مثل اللون ، والطعم ، والبرودة ، والرطوبة ، في جسم واحد . فإن المحل لها واحد ، والزمان واحد . لكن هذه مختلفة الذوات بحدودها وحقائقها ، فيتميز الطعم عن اللون بذاته ، لا بمكان وزمان ، ويتميز العلم عن الإرادة والقدرة بذاته ، وإن كان الجميع كشيء واحد ، فإذا كان يتصور أعراض مختلفة الحقائق في محل واحد ، فأن يتصور أشياء مختلفة الحقائق بذواتها في غير مكان أولى .

فقيل : ههنا دليل آخر على إحالة ما ذكرتموه أظهر من

طلب التفرقة ، وهو أن هذا تشبيه ؛ لأنه إثبات لأخص وصف الله - تعالى - في حق الروح .

فقال : هيهات ، فإن قولنا : الإنسان حي ، عالم ، سميع ، بصير ، قادر ، متكلم . والله - تعالى - كذلك ، ليس فيه تشبيه ؛ لأنه ليس ذلك أخص وصف الإله ، بل أخص وصفه . أنه قيوم ، أى : هو قائم بذاته ، وكل ماسواه قائم به ، وأنه موجود بذاته لا بغيره ، وكل ماسواه موجود به لا بذاته ، بل ليس للأشياء من ذواتها إلا العدم ، وإنما لها الوجود من غيرها على سبيل العارية . والوجود لله - تعالى - ذاتي ليس بمستعار . وهذه الحقيقة - أعنى القيومية - ليس إلا لله تعالى .

قيل له : ذكرت معنى التسوية ، والنفخ ، والروح . ولم تذكر معنى النسبة في الروح ، وأنه لم قال : « من رُوحى » ؟ ولم نسبه إلى نفسه ؟ فإن كان لأن وجوده به ، فجميع الأشياء كذلك ، ولم نسب البشر إلى الطين ؛ فقال : ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴾^(٦) ثم قال : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي ﴾^(٧) . وإن كان معناه أنه جزء من الله - تعالى -

٦ - سورة ص : الآية رقم ٧١ .

٧ - سورة الحجر : الآية رقم ٢٩ . وسورة ص : الآية رقم ٧٢ .

فاض على القلب كما يفيض المعطى المال على السائل فيقول :
أفضت عليه من مالى . فهذا تجزئة لذات الله تعالى .

وقد قال : أبطلتم هذا ، وذكرتهم أن إفاضته ليس بمعنى
انفصال جزء .

فقال - رحمه الله - : هذا كقول الشمس لو نطقت به ،
وقالت : أفضت على الشمس من نورى ، فيكون صدقا ،
ويكون معنى النسبة : أن النور الحاصل من جنس نور
الشمس بوجه من الوجوه ، وإن كان فى غاية الضعف
بالإضافة إليه . وقد عرفت أن الروح منزّه عن الجهة
والمكان ، وفى قوته العلم بجميع الأشياء والاطلاع عليها ،
وهذه مضاهاة ومناسبة . فلذلك خصص بالإضافة ، وهذه
المضاهاة ليست للجسمانيات أصلاً .

ف قيل له : فما معنى قوله - تعالى - : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ
أَمْرِ رَبِّي ﴾ ^(٨) وما معنى عالم الأمر ، وعالم الخلق ؟ .

فقال : كل ما يقع عليه مساحة وتقدير - وهى الأجسام
وعوارضها - يقال : إنه من عالم الخلق . والخلق ههنا بمعنى
التقدير لا بمعنى الإيجاد والإحداث . يقال : خلق الشيء ،
أى : قدره .. قال الشاعر :

٨ - سورة الإسراء : الآية رقم ٨٥ .

وبعض الخلق يخلق ثم يفسرى

أى : يقدر الأديم ، ثم يقطع . ومالا كمية له ،
ولاتقدير . فيقال : إنه أمر ربانى . وذلك للمضاهاة التى
ذكرناها . وكل مامن هذا الجنس من أرواح البشر ، وأرواح
الملائكة ، يقال : إنه من عالم الأمر . فعالم الأمر عبارة عن
الموجودات الخارجة عن الحس ، والخيال ، والجهة ،
والمكان ، والتحيز . وهى مالا يدخل تحت المساحة ،
والتقدير ، لانتفاء الكمية عنه .

ف قيل له : أتوهم أن الروح ليس مخلوقا فهو قديم ؟

فقال : قد توهم هذا جماعة ، وهو جهل . بل نقول :
الروح غير مخلوق ، يعنى أنه غير مقدر بكمية ؛ فإنه
لا ينقسم ، ولا يتحيز ، لكنه مخلوق ، بمعنى أنه حادث^(٩) ،
وليس بقديم . وبرهان حدوثه طويل ومقدماته كثيرة . ولكن
الحق : أن الأرواح البشرية حدثت عند استعداد النطفة
للقبول ، كما حدثت الصورة فى المرآة بحدوث الصقالة . وإن
كان ذو الصورة سابق الوجود على الصقالة .

(٩) يقول ابن القيم فى المسألة السابعة عشرة

وهى : هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟ من كتابه (الروح) :

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهى من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً ؟ وقد أخبر -

سبحانه - أنه نفخ في آدم من روحه ، فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا ؟ وما حقيقة هذه الإضافة ؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة .

فهذه مسألة زل فيها عالم ، وضل فيها طوائف من بى آدم . وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين ، والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة . هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق ، وكل ماسواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة ، حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة ، واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله - تعالى - أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده ، وتوقف آخرون فقالوا : لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده ، فقال : أما بعد فإن سائلا سألني عن الروح التي جعلها الله - سبحانه - قوام نفس الخلق وأبدانهم ، وذكر أن أقواما تكلموا في الروح وزعموا أنها غير مخلوقة وخص بعضهم منها أرواح القدس وأنها من ذات الله ، قال : وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم ، وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والأثر ، وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم ، وأذكر بعد ذلك وجه الروح من الكتاب والأثر ، وأوضح خطأ المتكلم في الروح بغير علم ، وأن كلامهم يوافق قول جهنم وأصحابه . فنقول - وبالله التوفيق - : إن الناس اختلفوا في معرفة الأرواح ومحلها من النفس :

(فقال) بعضهم : الأرواح كلها مخلوقة ، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبي ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

(وقال) بعضهم : الأرواح من أمر الله ، أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ .

(وقال) بعضهم : الأرواح نور من أنوار الله - تعالى - وحياة من حياته ، واحتجت بقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره » ثم ذكر الخلاف في الأرواح هل تموت أم لا ؟ وهل تعذب مع الأجساد في البرزخ وفي مستقرها بعد الموت ؟ وهل هي النفس أو غيرها .

(وقال) محمد بن نصر المروزي في كتابه : تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض في روح آدم ماتأولته النصارى في روح عيسى ، وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار في المؤمن ، فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً ؛ لأن عيسى عندهم روح من الله صار في مريم ، فهو غير مخلوق عندهم .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض : إن روح آدم مثل ذلك ، إنه غير مخلوق ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق ، كما تأول من قال : إن النور من الرب غير مخلوق ، قالوا : ثم صاروا بعد آدم في الوصي بعده ، ثم هو في كل نبي ووصي إلى أن صار في علي ثم في الحسن والحسين ، ثم في كل وصي وإمام فيه يعلم الإمام كل شيء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد .

ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه ، كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع ولا اختلاف ، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال في (كتاب اللفظ) : لما تكلم على الروح قال : النسم : الأرواح . قال : وأجمع الناس على أن الله - تعالى - هو فائق الحبة وبارئ النسمة ، أي : خالق الروح . وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة : سألت - رحمه الله - عن الروح مخلوقة هي أو غير مخلوقة ؟ قال : وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة ، وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره ، والشيخ أبو سعيد الخزاز وأبو يعقوب النهرجوري ، والقاضي أبو يعلى ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى ابن مريم فكيف بروح غيره ؟ كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه في مجلسه في الرد على الزنادقة والجهمية ، ثم إن الجهمي ادعى أمراً فقال : أنا أجد آية في كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق : قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ وعيسى مخلوق ، قلنا له : إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن ، إن عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن لأننا نسميه مولوداً وطفلاً وصبيّاً

وغلاماً يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهي يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى ، فهل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ؟ ولكن المعنى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له : كن ، فكان عيسى يكن ، وليس عيسى هو كن ، ولكن كان يكن . فكن من الله قول ، وليس كن مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة . وقالت النصارى : عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال : هذه الخرقه من هذا التوب ، قلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة ، وإنما الكلمة قول الله - تعالى - : كن . وقوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ يقول : من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ يقول : من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها ، كما يقال : عبد الله ، وسماء الله ، وأرض الله ، فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح ؟ وقد أضاف الله إليه الروح الذي أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

والذي يدل على خلقها وجوه :

(الوجه الأول) : قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل في ذلك صفاته ، فإنها داخلة في مسمى اسمه ، فالله - سبحانه - هو الإله الموصوف بصفات الكمال ، فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل في مسمى اسمه ليس داخلاً في الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها ، فهو - سبحانه - بذاته وصفاته الخالق وماسواه مخلوق .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته ، وإنما هي مصنوع من مصنوعاته ، فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

(الوجه الثاني) : قوله تعالى لذكرى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتِكِ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَكِ شَيْئاً ﴾ وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط ؛ فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذي يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

(الوجه الثالث) : قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَاتَعْمَلُونَ ﴾ .

(الوجه الرابع) : قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورنا ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور ، وإما أن يكون واقعا على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقدير فهو صريح في خلق الأرواح .

(الوجه الخامس) : النصوص الدالة على أنه - سبحانه - ربنا ورب آباءنا الأولين ورب كل شيء ، وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا ، فالأرواح مربية له مملوكة ، كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

(الوجه السادس) : أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ والأرواح من جملة العالم فهو ربها .
الثاني : قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالأرواح عابدة له مستعينة ، ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانة بها .

الثالث : أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

الرابع : أنها منعم عليها مرحومة ، ومغضوب عليها وضالة شقية ، وهذا شأن المربوب والمملوك ، لا شأن القديم غير المخلوق .

(الوجه السابع) : النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجمسته ، وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه ، بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لها في الأحكام ، وهي التي تحركه وتستعمله وهو تبع لها في العبودية .

(الوجه الثامن) : قوله تعالى : ﴿ هل أتی على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئا مذكورا فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل :

يا خدام الجسم كم تشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

(الوجه التاسع) النصوص الدالة على أن الله - سبحانه - كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا : يا رسول الله جئناك لتنفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء - فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوي وجودها وجوده ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه .

(الوجه العاشر) النصوص الدالة على خلق الملائكة ، وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها ، وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه ، فإذا كان الملك الذى يحدث الروح فى جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بنفحه قديمة ؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه ؛ كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه ، وهذا ضلال وخطأ ، وإنما يرسل الله - سبحانه - إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة ، فتكون النفخة هى سبب حصول الروح وحدثها له ، كما كان الوطاء والإنزال سبب تكوين جسمه ، والغذاء سبب نموه ، فمادة الروح من نفخة الملك ، ومادة الجسم من صب الماء فى الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية ، فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة ، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية تراية مهينة تناسب الأرواح السفلية ، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

(الوجه الحادى عشر) حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - الذى فى صحيح البخارى وغيره عن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وسلمان الفارسى وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعلى بن أبى طالب وعمرو بن عبسة رضى الله عنهم .

(الوجه الثانى عشر) أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال ، وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب ، قال الله - تعالى - : ﴿ الله يتولى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ والأنفس هاهنا هى الأرواح قطعاً . وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال : سرنا مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى سفر ذات ليلة فقلنا : يا رسول الله لو عرست بنا ، فقال : إني أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة ؟ فقال بلال : أنا يا رسول الله فعرس بالقوم فاضطجعوا واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد طلع جانب الشمس ، فقال : يا بلال أين ماقلت لنا ؟ فقال : والذى بعثك بالحق ما أقيت على نومة مثلها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء » فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها ، وفى منامها التى يتوفاها ملك الموت ، وهى التى تتوفاها رسل الله - سبحانه - وهى التى يجلس الملك

عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرها ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلغنها ، وتوقف بين يدي ربها فيقضى فيها أمره ، ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم ، وهي التي تجعل في أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الحنة ، وهي التي تعرض على النار غدوا وعشيا ، وهي التي تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى ، وهي الأمانة بالسوء ، وهي اللوامة ، وهي المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهي التي تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلد وتأم وتخاف وتحزن ، وما ذاك إلا سمات مخلوق مُدْع ، وصفات منشأ مخترع ، وأحكام مربوب مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول عند نومه : « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، فإن أمسكتها فارحها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » وهو تعالى بارئ النفوس كما هو بارئ الأجساد ، قال - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ قيل : من قبل أن نبرأ المصيبة ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى ؛ لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل : يرجع إلى الثلاثة ، أى : من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ، ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطاها ، وتتقى من الشر إلا ما وقاها ، ولا تهتدى إلى شيء من صالح دنياها وآخرها إلا بهداه ، ولا تصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ، ولا تتعدى ما ألهمها ، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ، فأخبر - سبحانه - أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى ، خلافاً لمن يقول : إنها ليست مخلوقة ، ولمن يقول : إنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هي التي تخلق أفعالها ، وهما قولان لأهل الضلال والغى .

ومعلوم أنها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها في وجودها وصفاتها وكمالها ، وهذا من أبطل الباطل . فإن فقرها إليه - سبحانه - في وجودها وكمالها وصلاحتها هو من لوازم ذاتها ليس معللاً بعلة فإنه أمر ذاتي لها ، كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللاً بعلة فهو - سبحانه - الغنى بالذات ، وهي الفقيرة إليه بالذات ، فلا يشاركه - سبحانه - في غناه مشارك كما لا يشاركه في قدمه وربوبيته وملكه التام وكمال المقدس مشارك ، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهد على الأبدان .

وإيجاز هذا البرهان أن الأرواح لو كانت موجودة قبل الأبدان لكانت إما كثيرة ، وإما واحداً ، وباطل وحدتها وكثرتها ، فباطل وجودها . وإنما استحال وحدتها بعد التعلق بالأبدان ؛ لعلمنا ضرورة بأن ما يعلمه زيد يجوز أن يجهله عمرو . ولو كان الجوهر العاقل منهما واحداً لاستحال اجتماع المتضادين فيه ، كما يستحيل في زيد وحده .

قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ، ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه غيره ، وقد أرشد الله - سبحانه - عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ﴾ وأنتم حينئذ تنظرون * ولحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ أى : فلولا إن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع ، أو لاتعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها .

وكل ما تقدم ذكره في هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمة .

وهذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه ، ولولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ، ومن قصر فهمه في كتاب الله وسنة رسوله ، فأتى من سوء الفهم لا من النص ، تكلموا في أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن ينكر أمراً تشهد عليه به نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه ؟! بل تشهد به السموات والأرض والخلقة : فله - سبحانه - في كل ماسواه آية - بل آيات - تدل على أنه مخلوق مربوب ، وأنه خالقه وربّه وبارئّه ومليكه ، ولو جحد ذلك فمعه شاهد عليه .

ونعنى بالروح الجوهر العاقل ، ومحال كثرتها ؛ لأن الواحد إنما لا يستحيل أن يثنى ، وأن ينقسم ، إذا كان ذا مقدار كالأجسام . فالجسم ينقسم لأنه ذو مقدار ، فله بعض ، فيتبع بعض . أما مالا بعض له ، ولا مقدار فكيف يقسم ؟ .

أما تقدير كثرتها بعد التعلق بالبدن محال ؛ لأنها : إما أن تكون متماثلة ، وإما مختلفة . وكل ذلك محال ، وإنما استحالة التماثل ؛ لأن وجود المثليين محال في الأصل ، ولهذا يستحيل وجود سوادين في محل ، وجسمين في مكان واحد . لأن الاثنينية تستدعي مغايرة ، ولا مغايرة ههنا . وسوادان في محلين جائز ؛ لأن هذا يفارق ذلك في المحل إذا اختص بمحل لا يختص به الآخر . وكذلك يجوز في محل واحد في زمانين ؛ إذ لهذا وصف ليس للآخر . وهو الاقتران بهذا الزمان الخاص .

فليس في الوجود مثلان مطلقا بل بالإضافة ، كقولنا : زيد وعمرو مثلان في الإنسانية والجسمية ، وسواد الحبر والغراب مثلان في السوادية ومحال تغايرها ؛ لأن التغاير نوعان : أحدهما : باختلاف النوع والماهية : كتغاير الماء والنار ، وتغاير السواد والقلم .

والثاني : بالعوارض التي لا تدخل في الماهية : كتغاير الماء الحار والماء البارد ؛ فإن كان تغاير الأرواح البشرية بالنوع ،

فمحال ؛ لأن الأرواح البشرية متفقة بالحد ، والحقيقة ، وهى نوع واحد . وإن كانت متغيرة بالعوارض فمحال ؛ لأن الحقيقة الواحدة إنما يتغير عوارضها إذا كانت متعلقة بالأجسام ، منسوبة إليها بنوع . إذ الاختلاف فى أجزاء الجسم ضرورة ، ولو فى القرب من السماء والبعد منه مثلاً .

أما إذا لم يكن كذلك كان الاختلاف ، وهذا ربما يحتاج بحقيقة إلى مزيد تقرير . لكن هذا القدر تنبيه عليه .

فقل له : كيف يكون حال الأرواح بعد مفارقة الأجساد^(١٠) ولا تعلق لها بالأجسام . فكيف تكثرت وتغايرت؟؟

فقال : لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافاً مختلفة فى العلم ، والجهل ، والصفاء ، والكدورة ، وحسن الأخلاق وقبحها . فبقيت متغيرة ، فعقل تكثرها ، بخلاف ما قبل الأجساد فإنه لا سبب لتغايرها .

(١٠) يقول ابن القيم :

المسألة الخامسة من كتاب الروح :

وهى أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأى شئ يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاقى ؟ وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذى كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها ؟ .

هذه مسألة لا تكاد تجدد من تكلم فيها ، ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل

ولاسيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلاقتها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص ، فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه ، وكذلك من يقول : هي عرض من أعراض البدن ، فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها ، فلا تميز لها بعد الموت ، بل لا وجود لها على أصولهم بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحي ، ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التي تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل ، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن ، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس ، وبيننا بطلان ماخالف هذا القول من وجوه كثيرة ، وإن من قال غيره لم يعرف نفسه .

وقد وصفها الله - سبحانه وتعالى - بالدخول والخروج والقبض والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد ، وقال - تعالى - : ﴿ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ فألهمها فجورها وتقواها ﴿ فَأَخْبِرْ أَنَّهُ سَوَىٰ النَّفْسِ ﴾ كما أخبر أنه سوى البدن في قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ فهو - سبحانه - سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه كالقالب لنفسه ، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس ، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له .

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها ، فإنها تتأثر وتتقلع عن البدن كما يتأثر البدن ويتقلع عنها ، فيكتسب البدن الطيب والخبيث من طيب النفس وخبيثها ، وتكتسب النفس الطيب والخبيث من طيب البدن وخبيثه ، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن ، ولهذا يقال لها عند المفارقة : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب النفس ، واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث .

وقال الله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسْكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فوصفها بالتوفى والإمساك والإرسال كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية ، وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت . وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نعمة مسك وجدت على وجه الأرض ، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض .

والأعراض لا ربح لها ولا تمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد .

وأخبر أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله - عز وجل - فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سحيين ، ثم ترد إلى الأرض ، وإن روح الكافر تطرح طرحاً وأنها تدخل مع البدن في قبرها للسؤال .

وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : بأن نسمة المؤمن وهي روحه طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها .

وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة .

وقد أخبر - سبحانه - عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدوً وعشياً قبل يوم القيامة ، وقد أخبر - سبحانه - عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذه حياة أرواحهم ورزقها ، وإلا فالأبدان قد تمزقت ، وقد فسر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعاً فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ فعل بهم ذلك ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى .

(وصح) عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة ، وتعلق - بضم اللام - أى : تأكل العلكة .

(وقال) ابن عباس : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يئكلوا عن الحرب ، فقال الله - عز وجل - : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ الآيات . رواه الإمام أحمد .

وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتفاخها وكلامها ، وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى .

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتمييزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان ، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان ، فإن الأبدان تشتبه كثيراً ، وأما الأرواح فقل ماتشتبه .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون في علمنا أظهر تميز ، وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر ، بل التميز الذي عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتمييز ؟ وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين ، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تمييزهما في غاية الظهور .

وأنخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً ؟ قل أن ترى بدنا قبيحاً وشكلاً شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه ، وقل أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبه آفة تناسبها ، ولهذا يأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطيء ذلك .

(ويحكى) عن الشافعي - رحمه الله - في ذلك عجائب .

وقل أن ترى شكلاً حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له ، هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدريب واعتياد .

وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم ، وكذلك الجن ، فتمييز الأرواح البشرية أولى .

الفصل الخامس :

فقل له : مامعنى قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - :
« إن الله - تعالى - خلق آدم على صورة الرحمن »^(١١) ؟ .

فقال : الصورة اسم مشترك قد يطلق على ترتيب الأشكال
ووضع بعضها من بعض ، واختلاف تركيبها وهى الصورة
المحسوسة . وقد يطلق على ترتيب المعانى التى ليست
محسوسة . وللمعانى ترتيب أيضاً وتركيب وتناسب .
ويسمى ذلك صورة ، فيقال : صورة المسألة كذا ، وصورة
الواقعة ، وصورة العلوم العقلية كذا .

فالمراد بالصورة ههنا هو الصورة المعنوية ، والإشارة به إلى
المضاهاة التى ذكرناها ، ويرجع ذلك إلى الذات ،
والصفات ، والأفعال ..

(١١) ورد الحديث فى كتاب (عون البارى لحل أدلة صحيح البخارى) شرح التجريد
الصحيح .

للإمام القنوجى البخارى جـ ٤ ص ٥٧٠ ط إحياء التراث بقطر
والإضافة فى الحديث إضافة تشريف وتكريم ؛ لأن الله خلقه على صورة لم يشاكلها شئ من
الصور فى الكمال والجمال .

وحقيقة ذات الروح ، أنه قائم بنفسه ، ليس بعرض ، ولا جسم ، ولا جوهر متحيز ، ولا يحل المكان والجهة ، ولا هو متصل بالبدن ، والعالم ، ولا منفصل ، ولا هو داخل في أجسام العالم ، ولا خارج وهذا كله صفات ذات الله - تعالى - وأما الصفات فقد خلق حيا ، عالماً ، قادراً ، فريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً . والله - تعالى - كذلك . وأما الأفعال فمبدأ فعل آدمي : إرادة يظهر أثرها أولاً في القلب ، فيسرى منه أثر بواسطة الروح الحيواني الذي هو بخار لطيف في تجويف القلب إلى الدماغ ، ثم يسرى منه أثر في الأعصاب الخارجة من الدماغ ، ومن الأعصاب إلى الأوتار ، والرباطات المتعلقة بالعضل ، فتجذب الأوتار ، فيتحرك به الأصبع ، فيتحرك بالأصابع القلم ، وبالقلم المداد مثلاً . يحدث منه صورة ما يريد كتابته على وجه القرطاس على الوجه المتصور في خزانة التخيل فإنه مالم يتصور في الخيال صورة المكتوب أولاً لا يمكن إحداثه على البياض ثانياً .

ومن استقرأ أفعال الله - تعالى - وكيفية إحداثه النبات والحيوان على الأرض ، بواسطة تحريك السموات والكواكب . وذلك بطاعة الملائكة له بتحريك السموات ، على أن يتصرف آدمي في عالمه - أعني بدنه - فيشبه تصرف الخالق في العالم الأكبر ، وهو مثله ، وانكشف له أن نسبة

شكل القلب إلى تصرفه نسبة العرش ، ونسبة الدماغ نسبة الكرسى ، والحواس له كالملائكة الذين يطيعون طبعاً ولا يستطيعون خلافاً .

والأعصاب والأعضاء كالسموات ، والقدرة فى الأصبع كالطبيعة ، التى هى أمهات المركبات فى قبول الجمع والتركيب والتفرقة ومرآة التخيل كاللوح المحفوظ ، مهما اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة عرف معنى قوله : « إن الله - تعالى - خلق آدم على صورته » ومعرفة ترتيب أفعال الله - تعالى - معرفة غمضة ، يحتاج فيها إلى تحصيل علوم كثيرة . وما ذكرناه إشارة إلى جملته .

الفصل السادس

فقليل له : مامعنى قوله : « من عرف نفسه عرف ربه » (١٢) ؟.

فقال : إن الأشياء تعرف بالأمثلة المناسبة ، ولولا المضاهاة المذكورة لم يقدر الإنسان على الترقى ، من معرفة نفسه إلى معرفة الخالق .

فلولا أن الله - تعالى - جمع في آدمي ما هو مثال جملة العالم ، حتى كأنه نسخة مختصرة من العالم ، وكأنه رب في عالمه متصرف ، لما عرف العالم . والتصرف ، والربوبية ، والعلم ، والقدرة ، وسائر الصفات الإلهية ، فصارت النفس بمضاهاتها وموازنتها مرقاة إلى معرفة خالق النفس .

وفي استكمال المعرفة بالمسألة التي قبل هذه ما يكشف عن وجه هذه المسألة .

(١٢) وجاء في كتاب (رحمه من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن) للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي : جمع الشيخ محمود الغراب : وقد قال - صلى الله عليه وسلم - : « من عرف نفسه عرف ربه » فينبغي للإنسان أن ينظر في روحه كيف توجه إلى مدينة جسمه المزخرف ودخله . ليعاين ما أودع الحق فيه من الحكم والترتيب الأحسن . لأنه في

أحسن تقويم ، فإذا شرعت في هذا النظر فأمعن فيه ، ولا تترك زاوية من الإنسان حتى تدخلها وتعرف ما خزنت ؛ فإنها خزائن الحق ، فإنك تقف على علم عظيم . قال - تعالى - : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ . وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » فإن الإنسان من حيث تفصيله مفطور على العلم بالله . كسائر ما سوى الجن والإنس من المخلوقات . فما من شيء في الإنسان من شعر ، وجلد ، ولحم ، وعصب ، ودم ، وروح ، ونفس ، وظفر ، وناب ، إلا وهو عالم بالله - تعالى - بالفطرة ، بالوحي الذي تجلى له فيه .

والإنسان من حيث مجموعيته وماجمعيته من الحكم جاهل بالله حتى ينظر ويفكر ويرجع إلى نفسه ، فيعلم أن له صانعاً صنعه ، وخالقاً خلقه . فالإنسان من حيث تفصيله عالم بالله ، ومن حيث جملة جاهل بالله ، حتى يتعلم ، أى : يعلم بما في تفصيله . وكل علم لا يكون حصوله عن كشف بعد فتح الباب يعطيه الجود الإلهي ويبيديه ويوضحه ، فهو شعور لا علم ؛ لأنه حصل من خلف الباب والباب مغلق ، وليس الباب سواك ، فأنت بحكم معنك ومغناك ؛ وذلك هو غلق الباب .

فأنت تشعر أن خلف هذا الجسم والصورة الظاهرة معنى آخر لاتعلمه ، وإن شعرت به . فالصورة الظاهرة المصراع الواحد ، والنفس المصراع الآخر .

فإذا فتحت الباب تميز المصراع من المصراع . وبدا لك ما وراء الباب . فذلك هو العلم . فما رأيته إلا بالتفصيل . لأنك فصلت ما بين المصراعين . حتى تميز هذا فيك .

فإن كان الباب عبارة عن حق وخلق وهو أنت وربك فالتبس عليك الأمر ، فلم يتميز عينك من ربك . وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من عرف نفسه عرف ربه » فالشعور مع غلق الباب ، والعلم مع فتح الباب .

فإذا رأيت العالم متهما لما يزعم أنه به عالم فليس بعالم وذلك هو الشعور .

وإن ارتفعت التهمة فيما علم فذلك هو العلم . ويعلم أنه قد فتح الباب له : وأن الجود قد أبرز له ما وراء الباب . وكثير من الناس يتخيل أن الشعور علم وليس كذلك . وإنما حظه الشعور من العلم أن تعلم أن خلف الباب أمراً ما على الجملة لا يعلم ما هو . « راجع آيات من الرحمن للشيخ الأكبر محيى الدين بن العربي جمع فضيلة الشيخ محمود محمود الغراب ج ٤ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ط دمشق ١٤١٠ هـ . »

الفصل السابع :

قيل له : إن كانت الأرواح حادثة مع الأجساد ، فما معنى قوله - عليه السلام - : « خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفى عام » . وقوله - عليه السلام - : « أنا أول الأنبياء خلقا ، وآخرهم بعثا ، وكنت نيا وآدم بين الماء والطين » (١٣) ؟

فقال : شيء من هذا لا يدل على قدم الروح بل يدل على حدوثه وكونه مخلوقاً . نعم ربما دل بظااهره على تقدم وجوده على الجسد وأمر الظواهر هين . فإن تأويلها ممكن ، والبرهان القاطع لا يدرأ بالظواهر بل يسلط على تأويل الظواهر ، كما في ظواهر التشبيه ، في حق الله تعالى .

(١٣) كتب السيرة والسنة تروى كثيراً من الآثار ، تشير إلى تشريف الله - تعالى - باصطفاء محمد - صلى الله عليه وسلم - وكونه أول الأنبياء خلقا . فقد روى ابن إسحاق عن قتادة مرسلاً . قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث » (ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٤٩ ط صادر بيروت) .

وقد يكون المراد بالخلق هنا التقدير دون الإيجاد ، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجودا ، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير ، لاحقة في الوجود ، انظر الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٩١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

أما قوله : « خلق الله الأرواح قبل الأجساد » : أراد بالأرواح : أرواح الملائكة ، والأجساد : أجساد العالم من العرش ، والكرسى ، والسموات ، والكواكب ، والنار ، والهواء ، والماء ، والأرض . ولما كانت أجساد الآدميين بجملتهم صغيرة ، بالإضافة إلى جرم الأرض . وجرم الأرض أصغر من الشمس بكثير ، ثم لانسبة لجرم الشمس إلى فلكه ،

== وجاء عن العرباض بن سارية - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمجدل في طيته » رواه الإمام أحمد في مسنده ج ٤ ص ١٢٧ . ورواه الحاكم في المستدرک ج ٢ ص ٦٠٠ . ورواه الطبرانی في المعجم الكبير ج ١١ ص ٢٥٢ ورواه الهيثمي ج ٣ ص ١١٢ . ويقول الطيبي : والمعنى : كتبت خاتم الأنبياء في الحال الذي آدم مطروح على الأرض ، حاصل في أثناء تخلقه ، لما يفرغ من تصويره ، وإجراء الروح ، الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٩٦ . ويقول الحافظ أبو الفرج بن رجب - رحمه الله تعالى - : المقصود من هذا الحديث : أن نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله - تعالى - ويخرجه إلى دار الدنيا حيا ، وأن ذلك كان مكتوبا في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم - صلى الله عليهما وسلم - . (انظر الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٩٧) .

وفسر أم الكتاب باللوح المحفوظ في قوله - تعالى - : ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ سورة الرعد ، الآية رقم : ٢٩ .

ولا ريب أن علم الله قديم ، لم يزل علما بما يحدثه من خلقه ثم إن الله - تعالى - كتب ذلك في كتاب عنده . قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال - تعالى - : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ . سورة الحديد ، الآية رقم : ٢٢ .

ويروى الإمام أحمد عن ميسرة - رضى الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله : متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » رواه أحمد والترمذى ج ٢ ص ٤٢٥ .

ولا لفلكه إلى السموات التي فوقه . ثم كل ذلك اتسع له
الكرسى ؛ إذ وسع كرسیه السموات والأرض^(١٤) . والكرسى
صغير بالإضافة إلى العرش . فإذا تفكرت في جميع ذلك
استحقرت أجساد الآدميين . ولم تفهمها من مطلق لفظ
الأجساد . فكذلك يعلم ويتحقق أن الأرواح البشرية
بالإضافة إلى أرواح الملائكة كأجسادهم بالإضافة إلى أجساد
العالم .

ويقول الإمام أحمد في رواية منها : وبعضهم يروون : « متى كتبت » من الكتابة ، قال :
« كتبت نيا وآدم بين الروح والجسد » . فتحمل هذه الرواية مع حديث العرياض السابق
على وجوب نبوته - صلى الله عليه وسلم - وثبوتها وظهورها في الخارج . فإن الكتابة إنما
تستعمل فيما هو واجب ، إما تشريعا كقوله - تعالى - : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾
البقرة ، الآية رقم : ١٨٣ . أو قدرا كقوله - تعالى - : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾
سورة المجادلة ، الآية رقم : ٢١ .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قالوا : يا رسول الله : متى وجبت لك النبوة ؟
قال : « وآدم بين الروح والجسد » الترمذی والحاکم والطبرانی والبيهقي .
وروى ابن سعد عن الشعبي قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ متى استنبئت ؟ قال :
« وآدم بين الروح والجسد ، حين أخذ مني الميثاق » . رواه الدارمي في سننه : المقدمة
ص ٣ .

(١٤) يشير بهذا إلى قوله - تعالى - في سورة البقرة . ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا
تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم
ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسیه السموات
والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ .

ولو انفتح لك باب معرفة الأرواح الملكية لرأيت
الأرواح البشرية كسراج اقتبست من نار عظيمة ، طبق
العالم . وتلك النار العظيمة هي الروح الأخير من أرواح
الملائكة .

ولأرواح الملائكة ترتيب وكل واحد منفرد برتبته ،
ولا يجتمع في مرتبة واحدة اثنان ، بخلاف الأرواح البشرية
المتكثرة مع اتحاد النوع والمرتبة .

أما الملائكة : فكل واحد نوع بذاته . وهو كل ذلك
النوع وإليه الإشارة بقوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴾^(١٥) وبقوله - عليه السلام - : « إن الراكع
منهم لا يسجد ، والقائم لا يركع ، وإنه مامن واحد إلا وله
مقام معلوم » . فلا تفهم من إذاً من الأرواح والأجساد
المطلقة إلا أرواح الملائكة ، وأجساد العالم .

وأما قوله - عليه السلام - : « أنا أول الأنبياء خلقاً
وآخرهم بعثاً »^(١٦) فالخلق ههنا هو التقدير دون الإيجاد ؛ فإنه

(١٥) سورة يوسف ، الآية رقم : ٨٢ .

وسورة النمل : الآية رقم : ٤٩ .

(١٦) انظر ماسبق من بيان اصطفاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما ورد في ذلك .

قبل أن ولدته أمه لم يكن موجوداً مخلوقاً ، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير لاحقة في الوجود . وهو معنى قولهم : أول الفكر آخر العمل (١٧) .

بيانه : أن المهندس المقدر للدار ، أول ما يتمثل صورته في تقديره وهي دار كاملة ، وآخر ما يوجد من إثراء أعماله هي الدار الكاملة ، والدار الكاملة أول الأشياء في حقه تقديراً ، وآخره وجوداً ؛ لأن ما قبله من ضرب النبات ، وبناء الحيطان ، وتركيب الجذوع ، وسيلة إلى غاية وكال ، وهي الدار . فالغاية هي الدار . ولأجله تقدم الآلات والأعمال .

فاذا عرفت هذا ، فاعلم أن مقصود فطرة آدميين : إدراكهم لسعادة القرب من الحضرة الإلهية . ولم يكن ذلك إلا بتعريف الأنبياء ، فكانت النبوة مقصودة بالإيجاد ، والمقصود كمالها وغايتها ، لا أولها . وإنما تكمل بحسب سنة الله - تعالى - بالتدرج ، كما تكمل عمارة الدار بالتدرج . فتمهد أصل النبوة بآدم - عليه السلام - ولم يزل ينمو ويكمل ، حتى بلغ الكمال بمحمد ﷺ .

وكان المقصود كمال النبوة وغايتها ، وتمهيد أوائلها وسيلة إليها ، كتأسيس البناء ، وتمهيد أصول الحيطان ، فإنه وسيلة

(١٧) انظر الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ج ١ ص ٩١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

إلى كمال صورة الدار . ولهذا السر كان خاتم النبيين . فإن
الزيادة على الكمال نقصان .

وأكمل شكل الآلات الباطشة كف عليه خمسة أصابع ،
فكما أن ذا الأصابع الأربعة ناقص ، فذو الأصابع الستة
ناقص . لأن السادسة زيادة على الكفاية ، فهو نقصان
بالحقيقة . وإن كان زيادة في الصورة ، وإليه الإشارة بقوله -
عليه السلام - : « مثل النبوة مثل دار معمورة لم يبق فيها إلا
موضع لبنة . كنت أنا تلك اللبنة »^(١٨) أو لفظ هذا معناه .

فإذا عرفت أن كونه خاتم النبيين ضرورة لا يتصور
خلافه ، إذ بلغ به الغاية والكمال . والغاية : أول في التقدير ،
آخر في الوجود .

وأما قوله - عليه السلام - : « كنت نبيا وآدم بين الماء
والطين »^(١٩) أيضاً إشارة إلى ما ذكرناه ، وأنه كان نبيا في
التقدير قبل تمام خلقة آدم ؛ لأنه لم ينشأ خلق آدم إلا لينتزع

(١٨) يشير بهذا إلى ما رواه البخاري^{رحمته} عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ
قال : « إن مثل ومثل الأنبياء من قبلي . كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة
من زاوية . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟
فأنا هذه اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » . ابن حجر : فتح الباري ج ٧ ص ٣٧٠ .

(١٩) راجع ما سبق من أحاديث في اصطفاء النبي - صلى الله عليه وسلم - .

الصافي من ذريته ، ولا يزال يستصفي تدريجاً إلى أن يبلغ كمال الصفاء ، فيقبل الروح القدس الحمدي . ولاتفهم هذه الحقيقة إلا بأن تعلم أن للدار - مثلاً - وجودين : - وجود في ذهن المهندس ودماعه ، حتى كأنه ينظر إلى صورة الدار ، - وجود خارج ذهن في الأعيان .

والوجود الذهني سبب الوجود الخارج العيني ، فهو سابق لا محالة ، فكذلك تعلم أن الله - تعالى - يُقَدِّرُ أولاً ، ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً .

وإنما التقدير يرتسم في اللوح المحفوظ ، كما يرتسم تقدير المهندس أولاً في لوح أو قرطاس ، فتصير الدار موجودة بكمال صورتها نوعاً من الوجود يكون هو سبباً للوجود الحقيقي . وكما أن هذه الصورة ترتسم في لوح المهندس بواسطة القلم ، والقلم يجري على وفق العلم ، بل العلم مجراه . فكذلك تقدير صورة الأمور الإلهية ترتسم أولاً في اللوح المحفوظ . وإنما ينتقش اللوح من القلم ، والقلم يجري على وفق العلم ، واللوح عبارة عن موجود قابل للنقش .

الصور والقلم عبارة عن موجود منه تفيض الصور على اللوح المنتقش ؛ فإن حد القلم هو الناقل لصور المعلومات ، وحد اللوح هو المنتقش بتلك الصور . وليس من شرطهما أن يكونا قصبا أو خشبا بل ليس من شرطهما أن يكونا جسمين .

فالجسمية لا تدخل في حد القلم وحقيقته ، بل روح
القلمية واللوحية - مذكّرناه - والزائد عليه صورته لا معناه .
فلا يبعد أن يكون قلم الله تعالى ، ولوحه ، لائقين بأصبعه
ويده ، وكل ذلك على ما يليق بذاته وإلهيته ، فيتقدس عن
حقيقة الجسمية ، بل جمعتها جواهر روحانية عالمة . بعضها
متعلم كاللوح ، وبعضها معلم كالقلم . فإن الله - تعالى -
عَلَّمَ بالقلم . فإذا فهمت نوعي الوجود . فقد كان نبيا قبل
آدم ، بمعنى الوجود الأول التقديرى دون الوجود الثانى الحسى
العينى .

والله أعلم بالصواب

الفهرس

صفحة

٥	تقديم
٩	ترجمة الإمام الغزالي
١٥	الفصول في الأسئلة وأجوبتها للإمام الغزالي
١٧	الفصل الأول
١٩	الفصل الثاني
٢٣	الفصل الثالث
٢٧	الفصل الرابع
٤٥	الفصل الخامس
٤٩	الفصل السادس
٥١	الفصل السابع

رقم الإيداع
١٩٩١ / ٢٤٩٠
I.S.B.N 977 — 5083 — 28 — 1



الجمع التمويرى **غرافيكس** للتجهيزات الفنية ت . ٢١٢٩١٨٤

هذا الكتاب

قال الله - تعالى - :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُتِيتُمْ

مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

وسئل الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - عن الروح ، فأجاب :

« هذا سؤال عن سر الروح الذي لم يؤذن لرسول الله ﷺ في كشفه لمن ليس أهلاً له ، فإن كنت من أهله فاسمع : واعلم أن الروح ليس بجسم يحل في البدن حلول الماء في الإناء ، ولا هو عرضٌ يحل في القلب والدماء حلول السواد في الأسود ، والعلم في العالم ، بل هو جوهر وليس بعرض ؛ لأنه يعرف نفسه وخالقه ، ويدرك المعقولات » .

ف قيل له : لم منع الرسول ﷺ من إفشاء هذا السر ، وكشف حقيقة

الروح ؟

فقال - رحمه الله - : « لأن الأفهام لا تحتمله ؛ لأن الناس قسمان : عوام وخواص ، أما من غلب على طبعه العامة فهذا لا يقبله ولا يصدق به ... ومن ترقى عن العامة قليلاً نفى الجسمية وأثبت الجهة ، وترقى عن هذه العامة الأشعرية والمعتزلة فاثبتوا موجوداً لا في جهة » .

وبعد :

فإن أمر الروح وسره مما ضربت في فياضه العقول ، وجالت حول حماته الأفكار ، وتصارعت في كنهه أقوال الفلاسفة والمفكرين في غابر الأزمان وحديثها ، ولكن بقيت حقيقة الروح من مكنونات علم الله - تبارك وتعالى - .

والدار المصرية اللبنانية إذ تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام تسأل الله

- سبحانه - أن ينفع به المسلمين .

الناشر